



بين السنة والعقل - الجزء الأول

برنامج التنوير

الحلقة التاسعة عشرة

2021-07-31

هل هناك في صحيح السنة ما يتناقض مع العقل والعلم؟

بادئ ذي بدء؛ الإنسان يعقل ويتفكر وهذه نعمة ميزه الله تعالى بها عن سائر المخلوقات، ولقد وجه الله تعالى عباده في مئات الآيات إلى ضرورة عقل الأحكام وفهمها وتدبرها والتفكير بها، ولكن لا يصح بحال أن يُتخذ العقل إلهاً من دون الله يحلل ويحرم ويستحسن ويقيح، وإلا فهو الهوى بعينه إلا أنه يسمى اليوم زوراً وبهتاناً: (العقل) قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عِثَابَ غِشَاوَةٍ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
(23)

(سورة الجاثية)

أصل العقل في اللغة من الرُّبْط والمنع؛ لذلك لما قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن ناقته:

{ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْفُلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: اغْفُلُهَا وَتَوَكَّلْ }

(صحيح الترمذي)

أي اربط ناقتك وتوكل على الله فالتوكل على الله لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب.

ومن هذا المعنى فالعقل هو من يمنع نفسه من الوقوع في المهالك والمحرمات.
أما حين يجعل العقل في مقابل وحى السماء فقد أخرج عن الدائرة التي خلق من أجلها بل أصبح يستغل لنقص ما خلق له.

حقيقة العقل:

من جهة ثانية العقل ليس جهازاً مستقلاً في جسم الإنسان وإنما هو ملكة منحها الباري جل جلاله للإنسان يستخدمها في الاستدلال والتصور والتفكير، فالإنسان يتلقى معلوماته عن طريق الحواس أو عن طريق الخبر ثم يعقلها ثم يخرج حكمه عليه، فالنقل أو الخبر أحد أهم مصادر المعرفة والذي لا يدرك إلا بحواسه أو ينكر دور النقل في المعرفة لا يسمى عاقلاً أصلاً، هذا فيروس لا نراه بأعيننا لكننا نؤمن بوجوده ونحتاط خشية الإصابة به، أما الأحكام التي يطلقها العقل فلا يمكن أن تعدو ثلاثة أحكام فأي أمر يعقله الإنسان إما أن يحكم بعد ذلك بوجوبه أو يحكم باستحاله أو يحكم بجوازه.

مثال واجب الوجود أن العقل لا يمكن أن يدرك وقوع فعل غير فاعل ومن هذه المسلمة التي خلقها الله في العقل نحكم بوجود خالق لهذا الكون.

وأما ما يحكم العقل باستحاله فمثاله وجود النقيضين معاً؛ فلا يقبل العقل أن يكون الشيء متحركاً وساكناً في وقت واحد ولا يقبل أن يكون الرجل موجوداً بجسده في مكانين معاً في وقت واحد.

أما حكم الجواز فهو ما يتصور الإنسان ثبوته ونفيه، وأمثله لا تكاد تخصى فكل ما يقع في الوجود هو من الجائز عقلاً، وجودك في الحياة جائز، بل كل موجود في الكون فوجوده جائز.

العقل ليس واحداً عند كل البشر:

الآن نسأل المشككين: هل في صحيح السنة كلها ما يحكم العقل باستحاله؟ بالتأكيد لا فكل ما في البخاري وغيره من أخبار إما أن يحكم العقل بوجوبه أو بإمكانه، وليس في أخبار السنة أي خبر يحكم العقل باستحاله وقوعه.

إذاً ماذا يقصد من يقول: إن في السنة بل إن بعضهم أصبح يقول: إن في القرآن ما يتناقض مع العقل؟

يمكن أن يقول أحدهم: لم أعقل كيف يمكن لعصا أن تتحول إلى ثعبان مبین، وكذلك لم أفهم كيف يمكن لإنسان أن يلقى في النار ثم يخرج منها سليماً معافى، ولم أفهم كيف يمكن للبحر أن يصبح بضربة من عصا طريقاً يابساً وهكذا!

أيها الكرام من يقول: إن في صحيح السنة ما يتناقض مع العقل، كان الأجدر به أن يقول: إن في صحيح السنة ما يتناقض مع عقلي، أي مع فهمي وتصوراتي ومدركاتي لا أن يقول: مع العقل بهذا الإطلاق، لأنه لا يوجد عقل واحد عند جميع البشر وما تجده أنت بعقلك غير منطقي لربما يراه آخرون في منتهى العقلانية والمنطق.

هذا مثال: من يتعامل بالربا ويعيش عليه وهو مصدر رزقه سيقول لنا: إن كل نص يحرم الربا أو يلغن المرابي فهو متناقض مع العقل، يقصد مع عقله؛ لأن عقله يقنعه بأن هذه العملة الربوية منتهى المنطق والحكمة فهو يقرض مالا لشخص محتاج للمال فينفعه وينتفع منه، والطرفان راضيان فأين المشكلة؟

والزاني الذي ينتهك الأعراض لربما يقول له عقله: إن هذه الفاحشة التي تحرمها جميع الشرائع السماوية وكثير من القوانين الوضعية لا شيء فيها، إذ هي حل لمشكلة شباب وفتاة وبالتراضي وفعلاً هذا العقل قاد بعض الحكومات الغربية إلى تشريع الزنا بالتراضي!

فلو أطلقنا لكل إنسان أن يحكم عقله في الخير والشر وفق رؤيته لصرنا في غابة لا يحكمها شرع ولا قانون.

إن كل الدول اليوم تفرض قوانينها وتطبيقها وقد يكون كثير من المواطنين يعتقدون أن هذه القوانين تخالف عقولهم.

تناقض الخير مع العقل:

من جهة ثانية هناك من يقول: هذا الخبر يناقض العقل، والصحيح أنه يناقض المألوف والمعتاد، لأن العادة عندما تتغلغل في أعماق النفس يظن الإنسان أنها قد أصبحت من المسلمات.

مما ورد في صحيح البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع نخلة، فلما تركها وارتقى المنبر.

{ صَاخَبَتِ النَّخْلَةَ صِيَاخَ الصَّيْبِيِّ، ثُمَّ تَرَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَصَمَهُ إِلَيْهِ، تَبَيَّنُ أُنَيْنَ الصَّيْبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ }

(صحيح البخاري)

هذا الحديث الشريف قال بعضهم: إنه يناقض العقل. كيف ذاك؟ وهل ذكر الحديث شيئاً يحيل العقل وقوعه؟ إن أنين الجذع من الممكنات وهو بلا شك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والمعجزة لا تستحيل عقلاً إلا أنها لم تؤلف عادة، وأوضح مثال على ذلك أن انتقال إنسان ما من مكة إلى بيت المقدس وعودته إلى مكة في ليلة واحدة لم يكن من المألوفات في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو معجزة تخالف العادة لكنها لا تخالف العقل، إلا أن هذا الحدث أصبح مألوفاً اليوم فمن السهل جداً أن يسافر إنسان بالطائرة ويعود في ثلاث ساعات مثلاً وربما تطورت وسائل النقل أكثر واختصرت الزمن أكثر.

إذاً حتى المعجزات التي لا يألؤها الناس عادة غير مستحيلة عقلاً بل إن عصرنا هذا أصبح الناس فيه أكثر قدرة على قبول غير المألوف لما رأوا من تطور هائل في وسائل التواصل والمدنية جعل ما كان أقرب إلى المستحيل في عقول الناس واقعاً على الأرض.